وَصَمَتَ الكلام

مازال مطر كانون الأول يداعب دمشق بهدوء ويغسلها من غبارها لتستقبل مساءً جديداً عندما قالت لي:

- عاد وخلقَ لنا المشاكل من جديد.

نظرتُ نحوها، صدى صوتها يجول في رأسي دون أن أدرك مَنْ تعني. لم أرَ أمامي سواها، أجمل من كل الأيام السابقة، وأرقّ من هذه القطرات المنهمرة.

تابعتْ قولها:

- هذه المرّة الوضع صعب جداً، فسامي جاد بما يقوله.

ما زلتُ أنظر إليها، وأرقب بصمت قطرات المطر وهي تنزلق على شعرها الكستنائي وترسم خلفها دروباً ماسيّة تعكس أضواء المساء.

- لقد تغيّر كثيراً هذه الأيام، تصرفاته، كلامه مع أبي وأمي، وحتى معي.

أحلم لو تَمَّس يدي تلك الدروب الماسيّة، وأن أغفو في ذلك الليل الكستنائي. وأحلم لو أمسح كآبة عينيها وشحوب خديها بيدي. عيناها خُلقتا للفرح، فكيف جعلهما الحزن آية جميلة..؟، كيف جمعتْ نقيضين لا يجتمعان..؟.

- لم يعد سامي الذي أعرفه والذي تربيتُ معه.

وأنا لا أعرفك الآن، تغيّرتِ كثيراً في الأشهر القليلة الماضية لافتراقنا، زادتك الطبيعة جمالاً وإشراقاً، ورسمتك

بتألق وتأنق، وأهدتك حُسنا لم تَجُدْ به على مخلوقة قبلكِ. فلا يهمني حبيبتي إن غيّرت الطبيعة سامي أم أبقته على حاله.

- كَثُرَ غيابه خارج البيت.

أيضاً كل هذا لا يعنيني، لا أعرف سامي كلّ المعرفة لأشغل نفسي به، ما يهمني هو أنت وحدك دون باقي مخلوقات هذا الكون. لقائنا هذا انتظرته سنوات عديدة، ولدي الكثير لأقوله لك، لأكشفه لك، ولأرميه أمامك، عن حب خبأناه معا طويلاً وحانتْ ولادته. أعطني الفرصة للحديث، ولا تجعلي صَمْتَ الكلام يحوم فوقنا. انظري حولكِ، كل شيء يودّ سماع حديثنا معاً، حتى دمشق ذاتها انتظرت هذا اللقاء بلهفة، وكانت ترقبه كما ترقب الأم وليداً سيأتيها بعد طول انتظار، كل شيء فيها كان يسألني عنك، حدائقها، شوارعها، أنوارها، أسواقها، أناسها، وفصولها الأربعة، الكل كان ينادي قدومك، وأنا كنت أرد على النداء بجواب أخرق: (العام القادم، العام القادم سوف تأتي حبيبتي إلى هنا وستصبح فصلاً خامساً بين فصولك يا دمشق).

- أصبح عصبي المزاج، لا حديث له غير حديث زواجه. هدّده أبي وترجته أمي باكية، وأنا كدت أن أنهار على قراره الأخرق هذا.

مازال لا يعنيني كل هذا، أنت من يعنيني فقط، وحدك دون غيرك. غضّ الزمن عينه عنّا برهة فسرقنا هذا اللقاء منه خلسة، فدعينا نتحادث بالأهم حبيبتي. أتذكري كم لهفتْ قلوبنا للقاء كهذا منفردين، وحيد ين، لا يجمعنا غير حب وشوق..؟، لماذا ظروف من حولنا تسرق لحظاتنا الثمينة من بين يدينا..؟، ألم نعاني الانتظار واللهفة والصراع مع ذواتنا..؟، أم صارعتُ أنا وحدي..؟.

- الوضع في بيتنا سيئ جداً، فلم أجد غيرك أشكو له هذا.

إن صدقتِ أم لا فالأمر عندي أيضاً سواء، لم يعد يهمني إن شكوتِ لي أو لغيري بقدر ما يهمني لقائي هذا معك. كان في السنوات الأولى لحبنا أكبر أحلامي، بل أعظم مشروع أرسمه كل يوم عشرات المرات. وكنت أتساءل كثيراً : كيف سيكون..؟، وماذا سأقول لكِ..؟، بماذا ستجيبينني..؟، وكيف سنرسم حياة مشتركة..؟. فلا تقتليه يوم ولادته حبيبتي، دعيه يرى النور ويبوح بما يخفيه، عطريه بأنفاسك الشهية، وبلليه بدموع عينيك النرجسية فرحاً، أود سماع صوتك العذب الذي ألفته وعشقته، فلماذا يخرج الكلام من فيكِ غريباً غير مألوف لي..؟، ماذا فعلتْ بك الأشهر الماضية..؟، ماذا فعلتْ بك..؟.

- منذ أيام حادثته طويلاً. لم يزد شيئاً عن ما قاله لأبي وأمي. حاول إقناعي بالوقوف إلى جانبه، صرختُ في وجهه : أي زواج هذا الذي تسعى إليه..؟، فاجأه صوتي فهدأني، عاد لمحاولة إقناعي وأخذ بتلابيب حديث طويل حتى سألني: هل تؤمنين بالحب..؟.

وهل باتَ الحب في دائرة الشك أيضاً..؟، إذاً ضاع بين النعم واللا.

- أجبته طبعاً بدون شك فإن الحب يعلو فوق اعتبارات عدة، وينفرد باستثناءاته الخاصة، لكن ليس بهذه الطريقة، أرملة وفقيرة، فقيرة..؟.

تنطقين بغرابة واشمئزاز، لم تعرفي الفقر يوماً لذلك سيبقى مجهول النكهة لديك.

- لها ثلاثة أولاد..؟، تكبره بخمس سنوات..؟، وتعمل خيّاطة..؟. قُلْ لي: كيف لهذا الزواج أن يكون صحيحاً..؟.

وكيف تؤمنين بالحب إذاً..؟، ألم يسألك سامي هذا..؟.

- البارحة أصرّ سامي على موقفه، تفاقمت الأمور في البيت وكاد أبي أن يطرده لولا توسلاتي أنا وأمي وأخوتي الصغار. لم أنم ليلاً من شدة بكائي.

وأنا أيضاً لم أنم ليلة البارحة وأنا أفكّر بلقائنا هذا. أعددت في رأسي حديثاً طويلاً انتظرت ساعة بوحه لك سنوات طويلة، وما نتيجة انتظاري..؟، مشاكل عائلية تذيب حبي بعد أن رمته في النفايات. هل أنا مخطأ بسماعي لك أم أنت مخطأة بتناسي ما بيننا والخوض في أمور لا تعنينا..؟، عائلتك..؟، نعم لك الحق ولكن.....، من جديد لا أستطيع أن أمارس سلطتي كعاشق وكأن الحب قد وهبني سلطة لا معنى لها ولا وجود، ما أستطيع فعله هو أن أغيّر حديث سامي هذا، لكن سأدعك تشعرين بي وحدك دون تدخل مني.

- حاولتُ مرّة أخرى إقناعه للعدول عن هذا الزواج لكنه أصرّ بشكل أكبر وقال لي إنه لن يتراجع عن قرار أخذه مهما كانت الصعوبات.

بَكَتْ، فوقفت أمامها حائراً. دموعها عندي أغلى من أي شيء آخر، حاولتُ تهدئتها بقدر ما استطعت، لكنّي لم أستطع الاستطراد أكثر أمام أمر لا يعنيني به شيء سوى إنها مَنْ تحدثني به. هممتُ بتغير مجرى الحديث والهروب بها بعيداً عن ذلك عندما فاجأتني بقولها:

- أريدك أن تساعدني، أرجوك.

حدّقت في عينيها، شرفات بلورية غارقة بدمع صافي ترسل نظرات مسترخية ودافئة ردّتني بقوة إلى الأيام الغابرة، يوم أن بدأ حبنا بنظرات خجولة، فلم أجد في قلبي غير حنان

من نوع لا أفهمه. رَمَتْ شباكها فوق إرادتي فشعرت بالعجز أمامها عندما أردتُ الرفض وأن أقول لها لا. رددتُ في داخلي برفض شديد: (لا..لا) وأجبتها (بنعم، سأحاول، دعي الأمر لي وانسي كل الموضوع)، لم أسمع ما تمتمتْ به، ربما شكرتني أو قالتْ لي ما يجب أن أقوله لسامي، أو ربما ما يجب أن أفعله معه. وعدتها بإخلاص على المحاولة، فهدأ روعها وابتسمتْ الجوكندا أخيراً، فرحت لهدوئها وثقتها ولاقتراب الطمأنينة من قلبها. وشعرتُ باقترابي من البوح بحديث بيننا ما زلتُ أنتظره بوحه منذ سنوات عديدة، وثماره أصبحت وشيكة القرب من يدي. ساد الصمت بيننا وكلانا كان يرتبُ أفكاره ويستعيد مكانه وزمانه، قبّلتنا السماء بأمطارها آلاف القبل. حان وقتنا الخاص، حديثنا الخاص، طقوسنا الخاصة، فاشهدي يا أمطار، يا سماء، يا دمشق، ليظهر الحب إلى الحياة، يكفيه سجناً، ويكفيه احتراقاً صامتاً وموتاً بطيئاً، لم يرَ النور إلا بكلمات صغيرة ومتباعدة، مازحة وضعيفة وخائفة ومترقبة ما حولها، لا تحكمي عليه أن يصبح ذكرى حب مع تعاقب الأيام حبيبتي، ولا تجعليه كسيحاً عاجزاً في قلوبنا، أعطني الفرصة ولو لمرّة واحدة لأجعله ينهض ويصرخ في الوجود بقوة ويقول للأحلام الجميلة: حققي ذاتك فأنا موجود. لكنها أطلقتْ آخر سهامها نحوي وهي تقول لي:

- يجب علي أن أذهب الآن، لقد تأخرت، إلى اللقاء.

غادرتني بدون مقدمات أو تبريرات أو حتى أسف، حاولتُ إطالة اللقاء، وحاولتُ الفوز بغيره لكني استدركتُ الأمر وانسحبتُ بهدوء عندما شعرتُ بأنني ربما أفرض نفسي بما لاتريده هي. هززتُ رأسي أَنْ نعم، صافحتها ومَشَتْ بعيداً عني، وبقيتُ أنا واقفاً مكاني. نالتْ ما كانت توده من هذا اللقاء، وبقيتُ أنا وحيداً من جديد دون أن أبوح لها ولو بكلمة

واحدة جادة في مصيرنا معاً. شيّعتها بنظراتي، وراقبتها وهي تذوب في قطرات المطر وسواد الليل الكانوني ذاك. ذاب عبيرها مِن مَن حولي، وانطفأتْ أنوارها وغاب صوتها. عدتُ أمشي تحت أمطار دمشق الكانونية وحيداً كعادتي، أستذكر ودمشق غابر الأيام التي مضتْ. وعدتها من جديد بأن حبيبتي ستأتي العام القادم وتصبح فصلاً خامساً بين فصولها، فازدادت مطراً وبرداً، ودوى رعدها بصوته الهادر وكأنه يقول ساخراً: (لا تكذب عليّ كما تكذب على نفسك، لقد صَمَتَ الكلام بينكما ولم يعد لديك شيء له معنى).

كانت تلك الأمسية هي آخر مرّة التقينا فيها منفردين، وآخر مرة وقفتُ فيها تحت أمطار دمشق الكانونية.